

الشعر في عصر الحروب الصليبية

محمد المشايخ

لمحة تاريخية :

للحديث عن الشعر العربي في الفترة التي وقعت فيها الحروب الصليبية، لا بد من تقديم عرض موجز لتاريخ هذه الحروب التي يمكن القول إن السبب المباشر لها هو تخلص بيت المقدس من أيدي المسلمين، فقد توجهت قوات الصليبيين إلى بلاد الشام عام (490 هـ)، واحتلت بعض ولاياتها ومنها قونية والرها وانطاكية عام (491 هـ) ثم مرت بقيساريه وحماه واحتلت بعض ولاياتها ومنها قونية والرها وانطاكية عام (491 هـ) ثم مرت بقيساريه وحماه وفي عام (521 هـ) ظهر عماد الدين زنكي في الموصل وحقق الكثير من الانتصارات وأعاد الكثير من الأراضي التي كانت محتلة بيد الصليبيين، وكان لاسترجاع صلاح الدين الأيوبي غزة سنة (566 هـ)، وانتصاره في معركة حطين عام (573 هـ)، ودخوله مدينة القدس سنة (583 هـ)، وإنجازاته حتى وفاته سنة (589 هـ) ما غير مجرى تاريخ هذه الحروب التي استمرت حتى عام (690 هـ)، حيث كانت الأراضي الإسلامية تحتل من قبل الصليبيين ثم تعود للمسلمين الذين استطاعوا أن يقضوا على الوجود الصليبي في المنطقة في تلك السنة.

خلود الشعر :

كثر الشعر في الفترة التي مرت بها الحروب الصليبية، وتأثر بالأحداث الحربية والسياسية والاجتماعية والمذهبية، وسجل وقائعها على اختلافها، وخص الحربية منها بمزيد من العناية، ولقد تعددت فنون الشعر آنذاك، فكانت في المديح والهجاء والغزل والمجون والوصف والثناء وغيرها من المواضيع المعهودة في الشعر العربي من قبل، غير أنها لم تكن كما كانت من قبل، وأصابها شيء من التطور، فظهرت مضامين وأغراض جديدة بها ومنها شعر الجهاد والشعر الاجتماعي، فطراً على هذين الفنين حظ من الاهتمام أكثر من غيرها من المواضيع المذكورة، وازدهرت الفنون الشعرية الأخرى ومنها شعر التصوف، وشعر الحب الإلهي، والمديح النبوي، وشعر الوحدة الإسلامية وغيرها، والذي يهمنا من هذه الفنون جميعاً في هذه الدراسة هو الذي يخدم الدور الذي لعبه الشعر في هذه الحروب.

شعر الجهاد :

صور الشعراء الذين همهم الجهاد في هذه الفترة الحروب التي وقعت بين المسلمين من جهة، وبين الصليبيين والتتار من جهة أخرى، حيث تغنى هؤلاء بانتصارات المسلمين، وأشادوا بالأبطال والقادة، ودعوا إلى النضال والاستمرار فيه لتحرير الأراضي المحتلة بيد الفرنجة، وخاصة مدينة القدس، حيث كانوا مدفوعين بشعور ديني ووطني. ويذكر أن شعر الجهاد احتل مكانة كبيرة في أدب هذه الفترة، إذ بالإضافة إلى ما قيل من شعر صنفته الكتب التي تحض على الجهاد وتدعو إليه، ومنها كتاب « فضائل الجهاد » لابن شداد.. وطلب بعض الحكام نظم أشعار في هذا الموضوع، حيث صيغت ابتهالات فيه، ومنها ما ناجى به نور الدين « الله » بعد هزيمته في إحدى المعارك.. وقد ظهرت العاطفة الدينية قوية في هذا الشعر، والتي تتجلى في إبراز أشكالها في القصائد التي تبادلها طلائع بن رزيك وأسامة بن منقذ، ولقد أشاد الشعراء في قصائدهم بالانتصارات التي كانت ترفع راية المسلمين، وتحافظ على بلادهم، وعلى رأسهم ابن القيسراني، ولقد تنوع هذا الشعر، وقسم إلى أجزاء عديدة لا بد من الحديث عنها كل على انفراد :

وصف المعارك :

عكس الشعراء في قصائدهم المعارك التي دارت بين المسلمين والصليبيين، ابتداء من عهد عماد الدين زنكي، وخلفه نور الدين، ثم في عهد صلاح الدين الأيوبي، ومن جاء بعده من الأيوبيين، وكذلك في عهد سلاطين المماليك، وخاصة في عهد قطز والظاهر بيبرس، ومن أهم المعارك التي وصفها الشعراء آنذاك معركة الرها عام (539 هـ) التي دارت بين عماد الدين زنكي والصليبيين، ومنهم ابن القيسراني الذي قال في ذلك :

على غير ما عند العلوج اعتقاد
يفلّ حديد الهند عنها حداده
إلى أن ثناها من يعزّ قياده
بصير بتمريرين الألد لـداده
شرار ولكن في يديه زناده
فأراع الاسورها وانهداده
وهيات كان السيف حتما سفاده
ولا موثق إلا وحلّ صفاده
ولا مصحف إلا انار مداده
لقد ذلّ غاويكم وعزّ رشاده

لقد كان في فتح الرهاء دلالة
مدينة افك منذ خمسين حجة
وجامحة عزّ الملوك قيادها
فأوسعها حرّ القراع مؤيد
كأن سنا لمع الأسنة حوله
فأضرّمها نارين حربا وخدعة
فصدّت صدود البكر عند افتضاضها
فلا مطلق إلا وشدّ وثاقه
ولا منبر إلا ترنّج عوده
إلى أين يا أسرى الضلالة

ومن المعارك التي وقعت إبان هذه الفترة وتناولها الشعراء في قصائدهم بشكل رائع معركة حطين التي وقعت سنة (583 هـ) والتي قادها صلاح الدين الأيوبي، ومن هؤلاء العماد الأصفهاني الذي قال في هذه المناسبة :

يا يوم حطين والأبطال عابسة
رأيت فيها عظيم الكفر محتقرا
سحبت على الأردن ردنا من القنى
حططت على حطين قدر ملوكهم
ونعم مجال الخيل حطين لم تكن
بواقعة رجت بها الأرض جيشهم
بطون ذناب الأرض صارت قبورهم

وبالعجاجة وجه الشمس قد عبسا
معفرا خده والأنف قد تعسا
ردينية ملدا وخطية ملسا
ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا
معاركها للجرد ضرسا ولا دهسا
دمارا كما بست جبالهم بسا
ولم ترض أرض أن تكون لهم رمسا

وقال بهاء الدين زهير يصف معركة دمياط التي وقعت سنة (615 هـ) وانتصر فيها المسلمون بقيادة الملك الكامل الأيوبي :

به ارتجعت دمياط قهرا من العدى
ورد على المحراب منها صلاته
وأقسم أن ذاقت بنو الأصفر الكرى
ثلاثة أعوام أقمت وأشهرا
سدت سبيل البر والبحر عنهم
أساطيل ليست في أساطير من مضى
وجيش كمثّل الليل هولا وهيبة
كفى الله دمياط المكاره انها

وطهرها بالسيف والملة الطهر
وكم بات مشتاقا إلى الشفع والوتر
فلا حلمت إلا بأعلامه الصفر
تجاهد فيهم لا بزيد ولا عمرو
بسابحة دهم وسانحة غر
بكل غراب راح أفنك من صقر
وإن زانه ما فيه من أنجم زهر
لمن قبلة الاسلام في موضع النحر

وتغنى الشعراء أيضا في معركة عكا التي قادها الأشرف بن قلاوون، ومعركة عين جالوت التي قادها السلطان قطز، وقد أطنب الشعراء في وصف تلك المعارك.. ولما فتحت القدس سنة (583 هـ) على يد صلاح الدين الأيوبي نالت اهتماما كبيرا من الشعراء، فوصف معركتها كثيرون، ومنهم أسعد بن معمر، نقيب الأشراف بمصر، وابن الساعاتي، وغيرهم، ولكن للعماد الأصفهاني شعر يستحق أن يذكر هنا، ومما جاء فيه :

جنود أملاك السماء وظنهم
فلا يستحق القدس غيرك في الورى
وطهرته من رجسهم بدمائهم
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها
وعادت ببيت الله أحكام دينه
وقد طاب ريانا على طبرية

عدائك جن الأرض في الفتك لا الانسا
فأنت الذي من دونهم فتح القدس
فأذهبت بالرجس الذي ذهب الرجسا
وألبستها الدين الذي كشف اللبسا
فلا بطركا أبقيت فيها ولا قسا
فيا طيبها مغنى ويا حسننها مرسى

وعكا وما عكا وما كان فتحها
وصيدا وبירות وتبنين كلها
ويافا وأرسوف وتبني وغزة
وفي عسقلان الكفر ذل بملككم
لاجلائهم عن مدن ساحلهم كنسا
بسيك ألقى أنفه الرغم والتعسا
تخذت بها بين الطلى والظبي عرسا
فمنظره، بل أمره اربد واربسا

وقد طلب القادة المسلمون في تلك الفترة من شعرائهم أن يقولوا على أسنة القادة شعرا يصفون فيه معاركهم، ومن ذلك ما طلبه نور الدين من أسامة بن منقذ والعماد الأصفهاني، ويذكر أيضا أن الشعراء في هذا الواقع النضالي وصفوا الأدوات والآلات الحربية من مدمرات ونيران حربية وأساطيل وسيوف ومنجنيقات، ومن ذلك قول ابن القيسراني :

والسيف هام على هام بمعركة
والنبيل كالوبل هطال وليس له
وللأسنة عما في صدورهم
فخانت رماح الطعن أيديهم
لا البيض ذو ذمة فيها ولا اليلب
سوى القسي وأيد فوقها سحب
مصادر أقلوب تلك أم قلب
فاستسلموا وهي لا نبع ولا غرب

وأكثر الشعراء من وصفهم للقلاع والحصون سواء قبل المعارك أو بعدها، وقد تمكن الشاعر البوصيري (608-666 هـ) من وصف أحد الحصون الصليبية وهو يستسلم للمسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي سنة (682 هـ) :

فلم يرقبوا من صرح هامان مرقبا
وصبّ عليهم عارض من حجارة
وساموه خسفا من ثقب كأنها
فذاقوا به مر الحصار فأصبحوا
يصيحون أعلى السور خوفا كصافن
وماذا يرد السور عنهم وخلفه
بهامته برد السحاب بكور
ونبل وكل بالعذاب مطير
أثاف لها تلك البروج قدور
لهم ذلك الحصن الحصين حصير
نفى عنه نوم المعتقين صغير
من الخيل سور والصوارم سور

تخليد الانتصارات :

افتخر الشعراء المسلمون بالجهاد ضد الصليبيين والتتار في هذه الفترة، وخلدوا انتصارات المسلمين عليهم، ويظهر تغنيهم بتلك الانتصارات من خلال شعر كثير من الشعراء، مثل ابن منير الطرابلسي، وطلائع بن رزيك، وأسامة بن منقذ، وتغنى الشعراء في العصر المملوكي بالانتصارات على الصليبيين، ومنهم الشهاب محمود وقد قال ابن القيسراني مخلدا انتصار المسلمين في معركة « أنب » سنة (544 هـ) على يد نور الدين :

ما يوم أنب والأيام دائلة
من يوم بغير بعيد ولا كئيب

وقال طلائع بن زريك مخلدا انتصار الملك الصالح على الصليبيين في فلسطين سنة (553 هـ) :

الا هكذا في الله تمضي العزائم
وتستنزل الأعداء من طول عزهم
وتغزى جيوش الكفر في عقر دارهم
ويوفى الكرام النذرون بنذرهم
نذرنا مسير الجيش في مصر فما إذ
بعثناه من مصر إلى الشام قاطعا
فما هاله بعد الديار ولا ثنى
وتنضى لدى الحرب السيوف الصوارم
وليس سوى سمر الرماح سلالم
ويوطأ حماها والأنوف رواغم
وإن بذلت فيها النفوس الكرائم
ثنى نصفه حتى انتثى وهو غانم
مفاوز وخذ العيس فيهن دائم
عزيمته جهد الطما والسائم

التهاني بالفتوح :

وجه الشعراء تهانيمهم بالفتوح للقادة والسلاطين، فعندما فتح المسلمون القدس بقيادة صلاح الدين الأيوبي، تتالت كتب التهئة والبشرى بالفتح، وتتالت القصائد وكثرت، ومن الشعراء الذين هئأوه بهذه المناسبة الحكيم أبو الفضل عبد المنعم عمرو بن حسان، وله قصائد تسمى « القدسيات » ومما جاء فيها :

يا فاتح المسجد الأقصى على بهم
أبشر بملك كظهر الشمس مطلع
حتى يكون لهذا الدين ملحمة
وقانص الجيش لا يحصى بقفزته
على البسيطة فتاح بنشرته
تحكي النبوة في أيام فترته

وقال أبو علي الحسن بن علي الجويني البغدادي الأصل قصيدة جاء فيها :

جند السماء لهذا الملك أعوان
هذي الفتوح فتوح الأنبياء وما
لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقد
من شك فيهم فهذا الفتح برهان
لها سوى الشكر بالأفعال أثمان
تنزلت فيه آيات وقرآن

وقال ابن سناء الملك يمدح الملك الناصر صلاح الدين بفتح القدس :

لست أدري بأي فتح تهنئى
كل فتح يقول أني أولى
قد ملكت الجنان قصرا فقصرا
يا منيل الاسلام ما قد تمنى
وهو أولى لأنه كان أهنى
إذ فتحت الشام حصنا فحصنا

المديح :

تركز المديح في هذه الفترة على مدح الأبطال والقادة المسلمين الذين خاضوا غمار المعارك للوقوف في وجه الصليبيين، الذين داهموا البلاد الاسلامية لاحتلالها والسيطرة

عليها، ولم يقتصر المديح على هذا، فقد مدح الشعراء الأصدقاء والعلماء كما مدحوا المدن، وقد ازدهر هذا النوع من المديح في هذا العصر، لذا نجد كثيرا من الأدباء يكتبون كتباً في فضائل المدن، وخاصة الشام والقدس، ولعلمهم ركزوا عليهما لأنهما كانتا الهدف الأساسي للصليبيين.. ومن النماذج الجيدة لمدح الأبطال في هذه الفترة ما قاله ابن منير الطرابلسي مادحا عماد الدين زنكي بعد استرجاعه زها من الصليبيين :

صفات مجدك لفظ جل معناه	فلا استرد الذي أعطاكه الله
يا صارما بيمين الله قائمة	وفي أعالي أعادي الله حداة
أصبحت دون ملوك الله منفردا	بلا شبيه إذ الأملاك أشباه

الدعوة إلى الجهاد :

دعا الشعراء في هذه الفترة إلى الجهاد، وحثوا القادة والسلطين جميعا للسير قدما على مواصلة القتال ضد الصليبيين، ومنهم العماد الاصفهاني، وأسامة بن منقذ، وطلائع بن رزيك، فقد طلب الأخير من أسامة أن يحث نور الدين على الجهاد، وفي ذلك دعوة للوحدة الاسلامية :

فانهض الآن مسرعا فبأمتا	لك ما زال يدرك المطلوب
قل له دام ملكه وعليه	من لباس الاقبال برد قشيب
أيها العادل الذي هو للديـ	ن شباب وللحروب شبيب
والذي لم يزل قديما على الاسـ	لام بالعزم منه تجلى الكروب
وغدا منه للفرنج إذا لا	قوه يوما من الزمان عصيب

ولم تقتصر الدعوة إلى الجهاد على ما تقدم، فإننا نجد الشعراء يعكسون استنجاد المسلمين ببعضهم، فمصر والشام تستنجد ببغداد والمغرب، وكان الشعراء المستغيثون يمدحون المستنجد بهم، ويصورون حالة المناطق المحتلة، ليثيروا عواطف من يستنجدونهم، ومن ذلك استنجاد القاضي الهروي بالخليفة في بغداد بعد سقوط القدس :

وكيف تنام العين ملء جفونها	على هفوات أيقظت كل نائم
واخوانكم بالشام أضحى مقيلمهم	ظهور المذاكي أو بطون القشاعم

وقال أحد الشعراء على لسان مدينة القدس :

يا أيها الملك الذي	لمعالم الصلبان نكس
جاءت إليك ظلامـة	تسعى من البيت المقدس
كل المساجد طهرت	وأنا على شرفي منجس

ومن أقوال العماد الاصفهاني في تحريض صلاح الدين على فتح القدس :

فسر وافتح القدس واسفك به	دماء متى تجرّها ينطف
واهد إلى الاسبتار البنا	ر وهد السقوف على الأسقف
وخلص من الكفر تلك البلا	د يخلصك الله في الموقف

وقال ابن الخياط يخاطب الأمير عضد الدولة :

أنوما على مثل هذا الصفار	وهزلا وقد أصبح الأمر جدا
بنو الشرك لا ينكرون الفساد	ولا يعرفون مع الجور قصدا
ولا يردعون عن القتل نفسا	ولا يتركون من الفتك جهدا
فحاموا على دينكم والحريم	محامة من لا يرى الموت فقدا
فقد أينعت أرؤس المشركين	فلا تغفلوها قطافا وحصدا

ويقول ابن رشيد النابلسي داعيا المسلمين للدفاع عن القدس وقد حاول الافرنج استعادتها من المسلمين سنة 588 هـ :

فحام عن حوطة البيت المقدس
لاخوف وحاشاك من خوف ولا ضرر

وقال ابن النبيه يخاطب الملك الأشرف :

يا حارس الدين لما نام حارسه	وناظما شمله من بعد تبديد
جهز جيوشك إن الثغر قد عبثت	به الفرنج فأضحى غير مسدود
أيدركون به أوتار قدسهم	منكم وذلك ملك غير مردود
يا للرجال أياديكم لنازلة	تستنزل الماء من صم الجلاميد
أين الحمية هبوا من منازلكم	أما لعاجل الدنيا أو لمعبود

ولقد استنجد الملك الكامل الأيوبي بأخيه الملك الأشرف موسى لما اشتد حصار الفرنج على دمياط، وقد كان لهذا الاستنجد أثر كبير، فعمل على اتحاد الأسرة الأيوبية، ووقوفها صفا واحدا ضد العدو، واستنجد بعض الأمراء المسلمين بالصلبيين، وذلك للحفاظ على ملكهم ومناصبهم، ومن ذلك استنجد مجير الدين صاحب دمشق بالفرنج، وكان موقف الشعراء منه متمثلا في نقده والسخرية منه، ومما قال أسامة بن منقذ معاتباً معين الدولة على استسلامه للافرنج :

أين الحمية والنفس الأبية إذ	ساموك خطة خسف عارها يصم
هلا أنفت حياء أو محافظة	من فعل ما أنكرته العرب والعجم
أسلمتنا وسيوف الهند مغمدة	ولم يرو سنان السمهرى دم

لا يعتريه به شيب ولا هرم
يخشى الأعادي وَلَا تَغْتَالِه النِّقَم
عذر فماذا جنى الأطفال والحرم
رضى عدى يسخط الرحمن فعلهم

وكننت أحسب من والاك في حرم
وإن جارك جار للسموئل لا
هبنا جنينا ذنوبا لا يكفرها
أبقيتم في يد الأفرنج مبتغيا

ومما يشار إليه في هذا المجال التأليف في هذا الموضوع، والحديث عن المجاهد
وفضائله وكلاهما حث على الجهاد.

الاستغاثة والدعاء :

وكان المسلمون إذا حلت بهم هزيمة، دعوا ربهم واستغاثوه ليخلصهم من هول ما وقع بهم،
ويدفع شر الهزيمة للحفاظ على الدين والوطن من الخطر، وانعكس ذلك جليا في شعر
هذه الفترة، فقد أنشأ الغزالي قصيدة أسماها « دعاء المنفرجة » وهي قصيدة طويلة تصور
حالة المسلمين بعد أن داهمهم خطر الغزو الصليبي في بداياته في العصر المملوكي، ومنها
قوله :

يا رب فعجل بالفرج
وبإذنك تفريج الحرج
والويل لها إن لم تهج
عادتك باللطيف البهج
وافتح ما سد من الفرج

الشدة أودت بالمهج
والأنفس أمست في حرج
هاجت لدعائك خواطرنا
يا من عودت اللطف أعد
واغلق ذا الضيق وشدته

ولأبي الفضل يوسف بن محمد التورزي المعروف بابن النحوي المتوفى عام 513 هـ
قصيدة في الدعاء والاستغاثة يقول فيها :

قد آذن ليلك بالبلج
حتى يغشاه أبو السرج
فإذا جاء الإبان تجي

اشتدي أزمة تنفرجي
وظلام الليل له سرج
وسحاب الخير له مطر

وقال البوصيري :

فإنك لم تخلف لديك المواعد
نرجعه في كربنا ونعاود
فما أحد عما تقدر حائد

دعوناك مضطرين يارب فاستجب
فليس لنا غوث سواك وملجأ
فقدر لنا خير الذي أنت أهلـه

وكان ابن القيم الجوزية يرى أن نصرة الاسلام فرض على كل إنسان بقدر استطاعته وبكل الوسائل الممكنة، وعندما يعجز عن ذلك فإنه لا بد من التوجه إلى الله، وقد قال في إحدى قصائده :

هذا ونصر الدين فرض لازم لا للكفاية بل على الأعيان
بيد وأما باللسان فإن عجزت فبالتوجه والدعا بجنان
ما بعد ذا والله للإيمان حبة خردل يا ناصر الإيمان

شعر الوحدة الاسلامية :

جاء الخطر الصليبي سببا في دعوة الشعراء للوحدة والتكاتف والتضافر في الجهود للوقوف صفا واحدا أمامه وتناسي كل الخلافات المذهبية والشخصية، ولقد أشاد الشعراء بوحدة مصر والشام، وهنأوا من قام بتلك الوحدة، ومن هؤلاء الشعراء العماد الاصفهاني :

دانئت لك الدنيا فقاصيتها إذا حققته لنفاذ أمرك داني
فمن العراق إلى الشام إلى ذرا مصر إلى قوص إلى أسوان

ولقد عمل صلاح الدين الأيوبي على توحيد البلاد الاسلامية للوقوف في وجه الصليبيين، وساعده على ذلك أن الشعور بالوحدة الاسلامية كان سائدا آنذاك، وأن الشعراء قد عملوا على طبعه في النفوس ودعوا إلى الوحدة الاسلامية في أشعارهم، ومنهم ابن سناء الملك، ففي قصيدته التي هنا فيها صلاح الدين بفتح حلب، أبدى مشاعره نحو الوحدة الاسلامية، وكذلك في قصيدته التي يعبر بها عن حال مصر بعد دخول صلاح الدين إليها :

وقد أصبحت مذسرت مصر وأهلها كعمنى بلا لفظ ولفظ بلا معنى

وتبدو الوحدة الاسلامية جليلة في شعر الشعراء الذين أنشأوا قصائدهم في فتح القدس ففيها دليل على الوحدة الاسلامية، ودعوة للعمل من أجلها بعد أن تفرق المسلمون وأصابهم الضعف والبلاء وانتصار عدوهم، قال العماد الاصفهاني مخاطبا نور الدين :

أغز الفرنج فهذا وقت غزوهم واحطم جموعهم بالذابل الحطم
وطهر القدس من رجس الصليب وثب على البغاة وثوب الأجدل القطم
فملك مصر وملك الشام قد نظما في عقد عز من الاسلام منتظما

وإذا نظرنا في شعر الجهاد عامة، نجد أنه يتسم بسمات متعددة من أهمها أن النزعة الدينية تبدو جليلة فيه، ويتسم بالحماسة المتدفقة، وصدق العاطفة وحرارتها وتأثره بالشعر الحماسي الذي قيل في العصور السابقة، بالإضافة إلى تمسكه بالجزالة والقوة في الألفاظ والمعاني التي تتلاءم مع شعر الحرب، يضاف إلى ذلك كله ابتعاد هذا الشعر عن المقدمات الغزلية غالبا.

الرثاء :

كثر القول في الرثاء إبان هذه الفترة، وعدا عن رثاء الشعراء للأمرء والأقارب والأصدقاء والعلماء ورثائهم للدول والمدن، اشتهر موضوع رثاء الأبطال والقادة الذين سقطوا شهداء في ساحة الشرف.

وهناك البكاء على المدن الاسلامية المحتلة بيد الصليبيين، وها هو أحدهم يقول راثيا الوضع بأكمله في تلك الفترة :

أحل الكفر بالاسلام ضما	يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحمى مباح	وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليباً	ومسلمة لها حرم سليب
أمور لو تأملهن طفل	لطفل في عوارضه المشيب

وقال شهاب الدين بن المجاور في قصيدة مطلعها :

أعيني لا ترقى من العبرات	صلي في البكا الآصال بالبكرات
--------------------------	------------------------------

قال :

لتبك على القدس البلاد بأسرها	وتعلن الأحزان والترحات
لتبك عليها مكة فهي أختها	وتشكو الذي لاقت إلى عرفات
فمن لي بنواح ينحن على الذي	شجاني بأصوات لهن شجاة

وهناك مرثية بيت المقدس للابوردي عند سقوطها، وذكر القاضي « مجد الدين » خراب القدس على أيدي التتار مرة أخرى فقال :

مررت على القدس الشريف مسلماً	على ما تبقى من ربوع كأنجم
------------------------------	---------------------------

وقال عماد الدين راثيا نور الدين بعد وفاته :

الدين في ظلم لغيبة نوره	والدهر في غم لفقد أميره
فليندب الاسلام حامى أهله	والشام حافظ ملكه وثغوره

وقال الشاعر نفسه راثيا صلاح الدين الذي فتح جرحا واسعا في صدور المسلمين بعد وفاته :

يا راعيا للدين حين تمكنت	منه الذئاب وأسلمته رعاته
ما كان ضرك لو أقمت مراعيها	دينا تولى مذ رحلت ولاته

أضجرت منا أم أنفت فلم تكن
فارقت ملكا غير باق متعبا
ممن تصاب لشدة ضجراته
ووصلت ملكا باقيا راحاته
نأيا ووجهك لا ترى بهجته
أعزز على عيني برؤية بهجة الد

وماذا بعد :

ويمكن القول إن هذه الفترة خصبة جدا وغنية بالشعر الذي لم تتح للكثيرين بعد فرصة الاطلاع عليه، لذلك اتهمت هذه الفترة بالقصور، وضمها بعض الدارسين إلى العصور المظلمة أو عصر الانحطاط، وسموا الفترة التي تلتها مباشرة بعصر النهضة رغم كونها قد تجلت بالقصائد الملنزمة بواقعها، والمعبرة عن الأحداث التي جرت في عهدها، بعد أن خلدت لنا الكثير من الدواوين لكثير من الشعراء المبدعين الذين يذكر منهم عند الحديث عن هذه الفترة : ابن منير الطرابلسي، ابن القيسراني، طلائع بن رزيك، أسامة بن منقذ، العماد الأصفهاني، ابن الساعاتي، ابن عنين، البوصيري، وغيرهم.

المراجع

- 1 - محمد سيد الكيلاني، الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام، مكتبة مصر، القاهرة، 1949 م.
- 2 - د. محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1970.
- 3 - د. محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1971.
- 4 - د. محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1968.